الفصل الأول

علم الاجتماع والتاريخ

* ما هو التاريخ وما هو موقفه كعلم ؟ ..
* أقطاب علم الاجتماع التاريخى واسهاماتهم ..
* دراسة الثقافة من منظور تاريخى ..

المبحث الأول

ما هو التاريخ وما هو موقفه كعلم

* ما هو التاريخ ؟ .
* التاريخ كعلم اجتماعى .
* نقاط الالتقاء بين التاريخ والاجتماع .
* مظاهر اللقاء بين الاجتماع والتاريخ .

* * *

* ما هو علم التـــاريخ ؟ ..

اذا ما حاولنا الاجابة على هذا السؤال ، سنجد أنفسنا أمام وجهات نظر مختلفة للعديد من المؤرخين خصوصا من يعنى منهم بفلسفة التاريخ .

ونتيجة لاختلاف وجهات النظر تلك سوف نجد من يقول أن علم **التاريخ** .. هو العلم الذى يعنى بالدرجة الأولى **بدراسة** الحوادث أو الوقائع التى حدثت فى **الماضى** ، أو هو العلم الذى يسعى لاقامة **تتابع** للأحداث التى وقعت بالفعل ، أو هو العلم الذى يختص بترتيب وتصنيف السلوك الانسانى **عبر** الزمن الماضى ، أو هو العلم الذى يهتم بدراسة السلوك الانسانى الذى حدث فى **الماضى** السحيق فى القدم .

وعلى كل حال فان علم التاريخ ببساطة شديدة **هو** « العلم الذى يهتم بدراسة التطـــور الذى لحق بالمجتمعات الانســـانية منذ الماضى البعيـــد » * .

(*) هناك من يرى ان علم التاريخ ان هو الا « سجل مكتوب للماضى او للاحداث الماضية » وهناك من يرى كذلك أن علم التاريخ هو « وصف الحوادث او الحقائق الماضية وكتابتها بروح البحث الناقد فى الحقيقة الكاملة » ، انظر ـــ دكتور جابر عبد الحميد جابر ، دكتور أحمد خيرى كاظم ـــ مناهج البحث فى التربية وعلم النفس ـــ دار النهضة العربية ـــ القاهرة ـــ ١٩٧٨ ص ص ١٠٣ ـــ ١٠٤ .

وعلم التاريخ من هذا المنطلق علم **اجتماعى** باعتباره محاولة **منظمة** لمعرفة وتحقيق الحوادث الماضية عن طريق ربط كل واحدة منها بالأخرى والكشف عن مختلف تأثيراتها على تشكيل ومسيرة الحضارة الانسانية .

واذا ما أضفنا الى ما سبق أنه ليس فى امكاننا فهم أو تفسير موقف اجتماعى ما دون أن نتعرف على مختلف الظروف خصوصا التاريخية منها والتى أدت الى انبثاقه ، لاتضح لنا صدق ما يقال عن أنه لا يمكن **فهم** الحاضر بمعزل عن الماضى[١] .

* **لكن ما هو موقف علم التاريخ كعلم اجتماعى ؟ ..**

علم التاريخ كغيره من العلوم الانسانية تعرض للعديد من **الانتقادات** ، خصوصا تلك التى تجرده من علميته أو تشكك فى امكانياته التى تؤهله لأن يكون علما مستقلا بذاته ، ويرى هؤلاء المنتقدون أن علم التاريخ ليس علما مدعمين دعواهم تلك بالأسباب الآتية :

١ ــ أن التاريخ ما هو الا **سجل** للماضى الانسانى الذى تتميز أحداثه بأنها فريدة وغير متكررة ، بمعنى أن الأحداث أو الظواهر التاريخية ما هى الا طفرات غير منظمة ولا مطردة ، أى لا يمكن تعميمها أو تصنيفها .

٢ ــ أن التاريخ ليس فى مقدوره أن يقدم لنا **تفسيرا** كاملا ومقبولا عن كيفية وأسباب وعوامل تطور الحاضر عن الماضى .

٣ ــ أنه على الرغم من القول المأثور عن أن التاريخ يعيد نفسه ، فان ذلك غير صحيح تماما ، لأن بعض الحوادث التاريخية يمكن أن تتشابه فى بعض الوجوه مع حوادث تاريخية أخرى ماضية ، لكنها لا يمكن أبدا أن **تتطابق** معها من جميع الوجوه .

٤ — التاريخ ليس فى مقدوره أن **يتنبأ** بالمستقبل ، ليس **فقط لأن** التاريخ لا يعيد نفسه تماما ، ولكن لأنه لا توجد أية قوانين عامة أو حتى مبادىء تجعل مثل ذلك التنبؤ ممكنا من خلال علم التاريخ .

٥ — كل ما يمكن أن يقدمه لنا التاريخ بعيدا عن التنبؤ بالمستقبل ، هو أنه يمكننا من **التعرف** على بعض الاتجاهات المحددة والتى أدت الى تطور المجتمعات الانسانية ، ومن أبرز تلك الاتجاهات .. الاتجاه نحو التصنيع الذى ظل ينمو لمدة تزيد على المائتى عام وحتى اليوم دون أى نكوص الأمر الذى يبرر التوقع أو التنبؤ باستمرار وانتشار هذا الاتجاه مستقبلا * .

*** لكن أليس لذلك القصور الذى يحد من قدرة علم التاريخ كعلم من حل ؟ ..**

يقول ماكس فيبر أن ذلك القصور فى التاريخ يمكن التغلب عليه بالتحليل الاجتماعى الذى يمكن عن طريقه التوصل الى قوانين علمية للسلوك الانسانى من خلال استخدام **نظرية** محكمة وفعالة للوصول الى التعميمات التى يمكن استخلاصها من المادة التاريخية الضخمة المتيسرة لنا .

ويضيف مولر أن عدم قدرة التاريخ على التعميم انما تعود غالبا الى عدم امكانية **عزل** أو قياس القوى المتعددة التى تحدد ذلك التاريخ ، فالسلالة والبيئة والثقافات المحيطة والمخترعات والاكتشافات والنبوغ والزعامة ، علاوة على العديد من النظم الاقتصادية والسياسية والدينية وغيرها ، كل تلك العوامل المتفاعلة والمركبة تجعل من الصعب

(*) هناك من يهاجم التاريخ وينكر موضوعيته كعلم ، ويصنفه باعتباره فرعا من فروع « الأدب » .

الوصول الى اجراء **تجـــارب** مضبوطة بغرض بيان وتوضيح أسباب حدوث بعض الوقائع التاريخية محل الدراسة[٢] .

الا أنه على الرغم من العمل العلمى الجليل الذى يقوم به المؤرخون من أجل توضيح الأحداث وتكوين مجموعات من الحقائق التى يمكن أن تستثمرها العلوم الاجتماعية الأخرى لوضع فروض متعددة تساهم فى توضيح أكثر دقة للماضى والحاضر ، على الرغم من ذلك كله فان التاريخ لا يمكن — فى رأى منقديه — أن يصبح علما الا فيما يتعلق بكيفية التحقق من الأحداث التاريخية الماضية * .

*** ما هى نقاط الالتقاء بين علمى الاجتماع والتاريخ ؟ ..**

هناك نقاط التقاء كثيرة بين كل من الاجتماع والتاريخ ، ولعل من أبرز هذه النقاط على الاطـــلاق :

(أ) أن علم الاجتماع ولد واشتد عوده بين **أحضـــان** التاريخ ، وحتى قبل أن يحمل علم الاجتماع اسمه ، منذ أيام العلامة ابن خلدون .. وحتى قبل أيام ابن خلدون ، ومنذ فجر التاريخ وعلى النحو الذى عالجناه ضمن كتابنا « سوسيولوجيا الحضارات القديمة » .. [٣] .

(ب) أن منهج البحث التاريخى أو **المنهج** التاريخى للبحث ، أثر ولازال يؤثر بل ويثرى الفكر السوسيولوجى منذ تحددت ملامح ذلك

(*) توجد العديد من الآراء التى قيلت حـــول اثبات علمية التاريخ — كعلم — ، ومنها ما ينتهى الى أن علم التاريخ قد أصبح اليوم أكثر قربا من العلوم الاستقرائية ، بعد اتجاه المؤرخين الى تفسير الحوادث الفريدة بدلا من الاقتصار على مجرد وصفها وبيان تتابعها ، ومنها ما يرى أن المؤرخين اليوم قد صاروا قريبى الشبه بعلماء الاجتماع نتيجة لمحاولاتهم للكشف عن العناصر الجوهرية والأساسية فى النظم الاجتماعية والسياسية وصولا لأسباب وعلل حدوث الظواهر التاريخية .

المنهج على يد ابن خلدون وحتى اليوم ، واعتقد أن ذلك الاثراء سيكون طابع الأجيال المستقبلية لعلم الاجتماع أيضا •

وقبل أن نوضح ما أوجزناه سنعرض هنا لأهم نقاط الالتقـــاء والاختلاف التى تميز العلاقة ما بين علمى الاجتماع والتاريخ وذلك بإيجاز شـــديد على النحو التالى :

١ ــ التاريخ لا يســـعى لاكتشاف الأسباب الكامنة وراء تتـــابع الأحداث أو وقوعها بالشكل الذى تمت عليه ، حيث ينصب الاهتمـــام الأساسى لعلماء التاريخ على معرفة **الكيفية** التى تمت بها الوقائع التاريخية فى الماضى ولاسيما السحيق منه •

لكن يعنى علماء الاجتماع فى المقام الأول عند تناولهم للوقائع التاريخية بالبحث عن العلاقات **التبادلية** بين كل تلك الوقائع ، وذلك بغرض التعرف على أسباب تتابعها بالشكل الذى وقعت عليه •

٢ ــ يلجأ علماء التاريخ عند عرضهم للوقائع التاريخية للاهتمام **بوضع** البيانات فى شكل **وصفى** يبعد تماما عن التجريد ، وبحيث يصفون الواقع كما هو ، لكن علماء الاجتماع يميلون الى **تجريد** الواقع الملموس ثم تصنيفه تمهيدا للوصول الى تعميمات[٤] •

٣ ــ عالم التاريخ يهتم فقط بما هو **حقيقى** بالنسبة لتاريخ شعب **معـــين** ، لكن عالم الاجتماع يوسع دائرة اهتماماته فيعنى بتاريخ **عـــدد** من الشعوب لا شعب معين •

٤ ــ علماء التاريخ يعتبرون أن ما يقوم به علماء الاجتماع من تجريد التاريخ لشعوب عديدة انما هو **تشويه** للواقع الذى يميز مكانا تاريخيا أو فترة زمنية بعينها •

٥ ــ يرى علماء الاجتماع أن المؤرخين لا يهتمون كثيرا بالأحداث

العـادية — باعتبارهم مؤرخين للملوك والحروب فى معظم الأحيان — أو التغيرات التى تطرأ عبر الزمن والتى تتخذ شكلا نظاميا مثل الملكية أو العلاقات الاجتماعية بين الرجل والمرأة داخل الأسرة ، وذلك على العكس من علماء الاجتماع الذين يهتمون بهذه الظواهر اهتماما **خاصا** ، بل قد يجعلون منها محورا لاهتماماتهم [٥] * .

* مظاهر اللقـــاء بين التاريخ والاجتمـاع :

اذا ما صرفنا النظر عن نقاط الاختلاف تلك ما بين التاريخ والاجتماع ، والتى تشكل فى الواقع دليل **استقلالية** كل منها وعلميته وهويته الخاصة ، وعلى الرغم من قناعتنا بأن ذلك الخلاف هو من النوع المرغوب والمطلوب ، أو هو خلاف **حميد** ، الا أن ايماننا لم يفتر بأن ما يجمع بين علمى التاريخ والاجتماع **أكثر مما يفرقهما** .

ولست وحدى الذى أقول ذلك ، فقد قاله من قبل مؤرخون عظـام سابقون ومعاصرون .. كتوينبى وبوركهات وكولتون وروستو فتزيف وغيرهم كثير ، عندما عالجوا فى كتاباتهم العديد من الأنماط والسنن والنظم والعلاقات الاجتماعية[٦] .

وقاله أيضا من قبل علماء اجتماع عظام كابن خلدون ** وماكس

(*) هذه النقطة بالذات مردود عليها ، حيث حوت كتب التاريخ القديمة منها والمعاصرة العديد من الظواهر بل والنظم الاجتماعية ، ولمن أراد الاستزادة عليه ان يعود الى :

١ — دكتور صلاح الفوال — سوسيولوجيا الحضارات القديمة — دار الفكر العربى — القاهرة ١٩٨٢ .

٢ — دكتور صلاح الفوال — المقدمة لعلم الاجتماع العربى والاسلامى — دار الفكر العربى — القاهرة — ١٩٨٢ .

(**) ابن خلدون فى رأى الكثيرين عالم اجتماع وعالم تاريخ معا ، لذلك هو فى رأينا احدى علامات الالتقاء البارزة بين الاجتماع والتاريخ خصوصا وانه يعد الأب المؤسس لهما معا باجماع آراء كل المنصفين .

فيبر وفيكو وكوندرسيه وجورج هيجل وماركس وسوروكين ، عندما قدموا لنا من خلال معالجاتهم للظواهر التاريخية من منظور سوسيولوجى فكرا لازال على أصالته حتى اليوم .

ثم .. لمـــاذا نذهب بعيدا ، وعلم الاجتماع التاريخى بأقطابه بيلاو ، ودايموند ، وبيرنباوم وغيرهم مما سنذكرهم بعد قليل خير شاهد على ذلك[٧] .

***

المصـــــادر والتعليقـــــات

١ — دكتور صلاح الفوال — محاضرات منشورة فى مادة « الجرد النقـــدى للعلوم الاجتماعية » — جامعة عنابه — معهد العلوم الاجتماعية — الجزائر — العام الجامعى ١٩٨١/٨٠ .

٢ — المصـــــــــدر الســـــــــابق .

٣ — دكتور صلاح الفوال — سوسيولوجيا الحضارات القديمة — دار الفكر العربى — القاهرة — ١٩٨٢ .

٤ — دكتور محمد الجوهرى وآخرين — دراسة علم الاجتماع — دار المعارف — القاهرة — ١٩٧٥ ص ٤٠ .

٥ — المرجـــع الســـــابق ص ٤٠ .

٦ — انظر المرجع السابق هامش ص ٤٠ وانظر ايضا :

(أ) Mikhail I. Rostovtzev, The Social and Economic of the Hellenistic World (oxford) The Clarendon Press, 1941.

(ب) George C. Coulton, Medieval Panorama : The English Scene fram Conquest to Reformation, N. Y, Meridian Books, 1957.

(جـ) J. Burckhard, (S.G.C.) Middlemore, (traus), The Civilization of the Renaissance in Italy vol. 1-11, N. Y, Harber, 1958.

٧ — انظر حول علم الاجتماع التاريخى :

Nicholas. S. Timacheff, Sociological Theory, N. Y; 1955.

المبحث الثانى

أقطاب علم الاجتماع التاريخى واسهاماتهم

* ابن خلدون
* فيـــــكو
* كوندرسـيه
* مـــاركس
* فيـــــبر
* شبنجـــلر

* * *

* أقطاب علم الاجتماع التاريخى :

يهدف علم الاجتماع التاريخى الى غاية أساسية ، ألا وهى **الكشف** عن القوانين التى تحكم أو تسير **وقائع** وأحداث التاريخ أو الاجتماع الانســانى .

ومحاولة الكشف هذه لم تركز على المقولة الشهيرة بأن التاريخ يعيد نفسه ، بل على العكس نبع عن قناعة بأن الظواهر التاريخية لا يمكن أن تتكرر أكثر من مرة وبنفس الصورة * كما أن تلك المحاولة ارتكزت فى المقام الأول على الأسلوب العلمى فى البحث عن تلك القوانين التى سيرت أحداث ووقائع الماضى بالصورة التى حدثت عليها * * .

(*) يعرف علم الاجتماع التاريخى بانه « النشاط العلمى المبذول لاكتشاف الانتظامات والمبادىء العامة التى تحـكم حركات المجتمعات او الثقافات أو الحضارات الكاملة » وقد يكون ذلك النشاط المبذول قد تم فى الماضى أو يتم فى الحاضر ، أو حتى سيتم مستقبلا ، لكن يبقى دوما مجاله الماضى بمختلف ظواهره وثقافاته .

(**) معنى ذلك أن الظواهر التاريخية يمكن أن تتكرر لكن ليست بنفس =

وعلى كل حال نحن سنعرض هنا فى عجالة لبعض رواد علم الاجتماع التاريخى مع مراعاة أننا سبق أن تناولنا بعضهم خلال مؤلفاتنا السابقة[١] .

(١)

* ابن خلدون « ١٣٢٢ ــ ١٤٠٦ » :

اهتم ابن خلدون بالربط ما بين الوقائع التاريخية للكشف عن مسار التاريخ وحركته ، وقدم لنا خلال مقدمته الشهيرة نماذج عديدة لمحاولاته تلك ، على الأخص ما تعلق منها بالدول وأعمارها ونشأة الملك والسلطة فيها ، ولسوف نعطى موجزا لبعض أفكار ابن خلدون وآرائه فى هذا المجال ، ولمن أراد الاستزادة عليه أن يعود لمؤلفنا عن « البداوة العربية والتنمية » [٢] .

١ ــ السلطة ضرورة لضمان الاجتماع الانسانى :

يرى ابن خلدون أن السلطة ضرورية حتى يستقيم الاجتماع الانسانى ويحقق كل أغراضه ، ثم حدد ابن خلدون منشأ هذه السلطة وحكمة وجودها ، وسمى ممارسيها ، وأوضح دور العصبية فى التمكين للسلطة حيث قال :

« ثم ان هذا الاجتماع اذا حصل للبشر كما قررنا ، وتم عمران العالم بهم ، فلابد من وازع يدفع بعضهم عن بعض ، لما فى طباعهم الحيوانية ــ يقصد الغريزية ــ من العدوان والظلم » .

ويسترسل ابن خلدون شارحا طبيعة ذلك الوازع وضرورة أن يكون نابعا عن المجتمع حتى يقول : « فيكون ذلك الوازع واحدا منهم يكون له

= الصورة ذاتها أو لنفس الأسباب التى أدت اليها ، قد تكون هناك بعض الملامح أو الأسباب المشتركة لكنها أبدا لن تتطابق ، ومن أمثلة الظواهر التاريخية المتكررة الثورة .. كثورة لكن الثورة الفرنسية أو المصرية لا يمكن أن تتكرر بذاتها مرة أخرى .

عليهم الغلبة والسلطان واليد القاهرة ، حتى لا يصل أحد الى غيره بعدوان ، وهذا هو معنى الملك » ..[٣] .

٢ — تطـــور الدولة وحياتها عند ابن خلدون :

بحث ابن خلدون فى الدولة وتطورها . وأوضح أن لها أعمـــــارا طبيعية ، كما بين أن الدول تتدرج ما بين القوة والضعف تبعا لتكوين كل جيل من أجيالها ، كما شبه عمر الدولة بعمر الاشخاص ، وأكد على العلاقة السببية بين قوة الدولة أو ضعفها وبين قوة أو ضعف العصبية[٤] .

ويحدد ابن خلدون عمر الدولة بثلاثة أجيال حيث يقول : « أن عمر الدولة لا يعدو فى الغالب ثلاثة أجيال » . ويقدر ابن خلدون عمر هذه الأجيال الثلاثة بمائة وعشرين سنة .

ويقرر أن الدولة لا تتجاوز هذا العمر فى الغالب ، الا « ان عرض لها عارض آخر » .

لكن ما هى الأسباب التى حدت بابن خلدون الى أن يحصر عمر الدولة فى ثلاثة أجيال وفنائها فى الجيل الرابع ؟ ..

(أ) «لأن الجيل الأول لم يزل على خلق البداوة وخشونتها وتوحشها »، ولكن ما هى صور ذلك التوحش ؟ . « شظف العيش والبسالة ، والافتراس والاشتراك فى المجد » ، « ولاتزال بذلك صورة العصبية محفوظة فيهم فحدهم مرهف ، وجانبهم مرهوب ، والناس لهم مغلوبون » .

(ب) والجيـــل الثانى « تحـــول حالهم بالملك والترفه من البـــــداوة **للحضـــارة** ومن الشظف الى الترف والخصب ، ومن الاشتراك فى المجد الى انفراد الواحد به وكسل الباقين عن السعى فيه ، ومن عز الاستطالة الى ذل الاستكانة » .

(جـ) أما الجيل الثالث فقـد نسـوا « عهد البداوة والخشونة كأن لم يكن » ، وفقدوا « حلاوة العز والعصبية بما هم فيه من ملكة القهر » ، والسبب يعود للحضارة حيث « يبلغ فيهم الترف غايته بما تعنقوه من النعيم ونضارة العيش » ، حيث صار الجيل الثالث بسبب ذلك كله « **عيالا على** الدولة ، ومن جملة النساء والولدان المحتاجين للمدافعة عنهم » .

(د) ومتى ينتهى عمر الدولة ، يقول ابن خلدون « كما تراه ثلاثة أجيال فيها يكون هرم الدولة وتخلفها . ولهذا كان **انقراض** الحسب فى الجيل الرابع » ..[٥] .

٣ ـ الحضارة وابن خلدون :

عنون ابن خلدون أحد فصول مقدمته الشهيرة قائلا « الحضارة غاية العمران ونهاية لعمره وأنها مؤذنه بفسـاده » .. [٦] ، وسنحاول هنا أن نتابع فكر ابن خلدون حيث نجد :

(أ) **عرف** ابن خلدون الحضارة قائلا « والحضارة كما علمت هى التفنن فى الترف واستجادة أحواله ، والكلف بالصنائع التى تؤنق من أصنافه وسائر فنونه من الصنائع المهنية للمطابخ أو الملابس أو المبانى أو الفرش أو الآنية ولسائر أحوال المنزل » .

(ب) وما هى **سمات** الحضارة ، يقول ابن خلدون « وللتأنق فى كل واحد من هذه صنائع كثيرة لا يحتاج فيها عند البداوة وعدم التأنق فيها . واذا بلغ التأنق فى هذه الأحوال المنزلية الغاية تبعه طاعة الشهوات » .

(جـ) وما هى آثار الحضارة « فتتلون النفس من تلك العوائد بألوان كثيرة لا يستقيم حالها معها فى دينها ولا دنياها : أما دينها فلاستحكام صيغة العوائد التى يعسر نزعها ، وأما دنياها فلكثرة الحاجات والمؤونات التى تطالب بها العوائد ويعجز الكسب عن الوفاء بها » .

(د) لكن ما هى صور ذلك الفساد الذى تجره الحضارة ، يقول ابن خلدون « وقد كنا قدمنا أن المصر الكثير العمران يختص بالغلاء فى أسواقه وأسعار حاجاته ، ثم تزيدها المكوس غلاء .. فتعظم نفقات أهل الحضارة وتخرج عن القصد الى الاسراف ، ولا يجدون وليجة عن ذلك ، لما ملكهم من أثر العوائد وطاعتها ، وتذهب مكاسبهم كلها فى النفقات ويتتابعون فى الاملاق والخصاصة ويغلب عليهم الفقر » .

(ه) وهل تقتصر مفاسد الحضارة على تلك الأمور ، أم تتوسع دائرتها لتضم الخصائص النفسية للأفراد والجماعات ؟ .

لابن خلدون فى هذه النقطة بالذات ، رأى واضح ، هو أن الحضارة تفسد « **المدنية** على العموم فى الأسواق والعمران » أما عن امتداد آثار ذلك الافساد الى الخصائص النفسية للأفراد ، فابن خلدون يقول « وأما فساد **أهلها** فى ذاتهم واحدا واحدا على الخصوص فمن الكد والتعب فى حاجات العوائد والتلون بألوان الشر فى تحصيلها .. فلذلك يكثر منهم **الفسق** والشر والسفسفة والتحيل على تحصيل المعاش من وجهه ومن غير وجهه » .

(و) لكن الحضارة شر لابد منه ، لأن كل عمران الى حضارة حيث يقول ابن خلدون « وعليه ان **غاية** العمران **هى** الحضارة والترف » لكن ابن خلدون يؤكد فى اصرار أن العمران « اذا بلغ غايته انقلب الى الفساد وأخذ فى الهرم » .. (٧) .

٤ ــ ابن خلدون وتصنيف المهن وصور الكسب :

أطلق ابن خلدون لفظ « المعاش » على العمل وقال أن « المعاش هو عبارة عن ابتغاء الرزق والسعى فى تحصيله » .

لكن كيف يمكن للمرء أن يتكسب « عيشه » ؟ ..

حدد ابن خلدون صور العمل الانسانى على الوجه الآتى :

(أ) « اما أن يأخذه من يـــد الغير ونزعه بالاقتدار عليه على قانون متعارف ويسمى مغرما وجباية » ، والجباية واضحة ، أما المغرم فهو احدى صور الحصول على المال بالاكراه كالاتاوة وما الى ذلك .

(ب) « واما أن يكون من **الحيـــوان** الوحشى باقتناصه وأخذه برميه من البر أو البحر ويسمى اصطيادا » .

اذن الصيد هو الصور الثانية للعمل كما يحدده ابن خلدون .

(جـ) واما أن يكون من الحيوان الداجن باستخراج فضوله المتصرفة بين الناس فى منافعهم كاللبن من الأنعام . والحرير من دودة ، والعسل من نحلة ، أو يكون من **النبات** فى الزرع والشجر بالقيام عليه واعداده لاستخراج ثمرته ، ويسمى هذا كله فلحا » .

اذن **الفلاحة** ــ بوجوهها التى صورها ابن خلدون ــ هى الصورة الثالثة من صور العمل .

(د) « واما أن يكون الكسب من **الأعمال** الانسانية : اما فى مواد معينة وتسمى الصنائع ، من كتابة وتجارة وخياطة وحياكة وفروسية وأمثال ذلك ، أو مواد غير معينة وهى جميع الامتهانات والتصرفات » .

اذن **الصناعة** ــ كما صورها ابن خلدون ــ هى الصورة الرابعة من صور العمل الانسانى .

(هـ) « واما أن يكون الكسب من البضائع واعدادها للأعواض : اما بالتقلب بها فى البلاد ، أو احتكارها وارتقاب تقلب الأسواق فيها ، ويسمى هذا تجـــارة » .

وواضح من كلام ابن خلدون أن **التجـــارة هى الصورة الخامسه من**

صور العمل الانسانى ، مع وعيه بفنون التجارة وما يصحبها من احتكار طبقا لظروف السوق[٨] .

(٢)

* جميا تست فيكو « ١٦٦٨ ــ ١٧٤٤ » :

يعد G. Vico . وهو مفكر ايطالى من المؤمنين بنظرية **الدورات** الحضارية وأول الداعين لها ، فمن رأيه أن المجتمعات تمر بدورات حلزونية انطلاقا من مبدأ الارتقاء والنكوص الذى كان سائدا آنذاك .

ويوضح فيكو أن كل مجتمع **يمـــر** أولا بمرحلة « الاهية » **تليها** مرحلة « بطولية » ، ثم مرحلة « انسانية » ثم يكون فناء المجتمع لتبدأ الدورة من جديد ــ مجتمعا الاهيا ملهما ، يليه مجتمع يصنعه أبطاله العظام ، ثم مجتمع يعيش فيه قوم عاديون من البشر بغير خوارق أو أمجاد .

الا أن فيكو يوضح أن صورة المجتمع فى كل دورة أو كل مرحلة **لا تبقى** كما كانت عليه قبلا بل ينالها الكثير من التحسن والتطور .. ويظل هذا الحال من التطور المحسن الى ما لانهاية .

وهذا التطور المحسن ليس قدر المجتمعات المحلية أو القومية فقط كما يقول فيكو بل هو قدر المجتمعات الانسانية والحضارات العالمية كلها .

(٣)

* كوندرسيه « ١٧٤٠ ــ ١٧٩٤ » :

قدم Condorcet نظرية **تفسر** التاريخ الانسانى عبر الزمان ومنذ فجر الخليقة ، وهو يرى من خلال نظريته تلك أن تاريخ الانسانية محدد **بعشرة** مراحل ، وأنه بانتهاء القرن الثامن عشر تكون الانسانية

قد عاشت فعلا تسعة مراحل من عمرها المديد ، ولم يبق أمامها الا مرحلة **واحـــدة** وأخيرة هى المرحلة العاشرة ضمن سلسلة مراحل « كوندرسيه » .

ولكن قبل أن نتحدث عن تلك المرحلة الأخيرة ، سنعرض ما يقـــوله كوندرسيه عن المراحل التسعة السابقة ، حيث قرر أن الانسانية عاشت المراحل الآتيـــة :

١ ــ المرحـــلة الطبيعية :

وهى مرحلة الفطرة التى عاشتها الانسانية فى طفولتها المبكرة ، ولها خصائص مرحلة التوحش Savagcry الدنيا التى حددها مورجان بعد ذلك ، وأهم سمات هذه المرحلة القنص والصيد [٩] .

١ ــ مرحـــلة الرعى واستئناس الحيـــوان :

وهى ولاشك مرحلة أكثر تقدما من سابقتها ، حيث تميزت الانسانية خلالها بالايجابية ، حيث قل اعتماد الانسان على البيئة والحيوان ، وأخـــذ يشارك بجهده وفكره ليبتكر طرقا أحسن لكيفية التعامل معهما ــ البيئة والحيوان ــ واستغلالهما [١٠] .

٣ ــ مرحـــــلة الزراعة :

وتعتمد هذه المرحلة على ما توفره الزراعة ــ خصوصا المستقرة منها ــ من تقدم حضارى وتكنولوجى ، وما يستتبع ذلك كله من تطـــور ثقافى واجتماعى ، ما كان ليحدث بغير ايجابية الانسان وسعيه قدما فى سبيل استغلال أكثر لقوى الطبيعة ومواردها [١١] .

٤ ــ مرحلة الحضارة اليونانية :

والحضارة اليونانية ، صاحبة فضل على الانسانية كلها ، حيث شكلت مع الحضارة المصرية ، الرصيد الضخم للانسانية عبر تاريخها الطويل لاسيما فى مجالات الثقافة والفن والعلم والفلسفة والسياسة [١٢] .

٥ ــ مرحلة الحضارة الرومانية :

وهى الأخرى احدى العلامات البارزة لتطور الانسانية ، وقد كانت صاحبة فضل على الفكر الانسانى العالمى كله خصوصا فى المجالات القانونية والتنظيمية وعلى النحو الذى بيناه فى غير هذا المكان [١٣] * .

٦ ــ مرحلة العصور الوسطى المسيحية :

وهى مرحلة عاشتها الانسانية فى أحضان الفكر الدينى المسيحى ، وعلى النحو الذى أوضحناه فى غير هذا المكان [١٤] ** .

٧ ــ مرحلة عصر الاقطـــاع :

وقد عاشت الانسانية خلال هذه المرحلة تحت سيطرة الاقطاع كسمة

(*) لم يذكر كوندرسيه ، الحضارة المصرية ولا غيرها من الحضارات الشرقية القديمة سواء منها السابقة او المعاصرة للحضارتين اليونانية والرومانية ، وهذه ولاشك سقطة منه اضفت مسحة من التحيز على فكره واسهاماته ، خصوصا وأن عددا غير قليل من تلك الحضارات كان منارا للحضارتين اليونانية والرومانية ، للاستزادة انظر :

دكتور صلاح الفوال ــ سوسيولوجيا الحضارات القديمة ــ دار الفكر العربى ــ القاهرة ــ ١٩٨٢ .

(**) لم يذكر كوندرسيه شيئا عن الاسلام ، خصوصا وانه لا يقل عن المسيحية لا من حيث الانتشار المكانى ولا من حيث عدد معتنقيه ، ولاشك ايضا ان هذه سقطة ثانية ، لا تضفى فقط على اسهامات كوندرسيه مسحة من التحيز ، ولكنها تصبغ فكره بنوع من ذلك التعصب المقيت ضد كل ما هو غير اوروبى ، خصوصا وأن كوندرسيه ــ كمؤرخ وكفيلسوف ــ لابد وأن يكون على علم بمصادر التاريخ الانسانى خصوصا تلك المصادر العربية التى تسربت الى العالم الغربى عبر الأندلس والتى شكلت قاعدة نهضته وانطلاقه والتى اسهمت ايضا فى التكوين الفكرى للكثير من فلاسفة الغرب وباحثيه ومنهم كوندرسيه نفسه سواء اقروا هم بذلك أو لم يقروا . خصوصا وان الفكر العربى الاسلامى قد افرز روادا علموا البشرية كلها ، ولكن تلك الحقيقة اخفتها عين التعصب عن كوندرسيه فلم يفطن اليها ، للاستزادة انظر :

دكتور صلاح الفوال ــ المقدمة لعلم الاجتماع العربى والاسلامى ــ دار الفكر العربى ــ القاهرة ــ ١٩٨٢ .

أساسية للمجتمعات كلها فى العصور الوسطى ، كما عانت خلالها من مختلف صنوف الاستغلال والتمييز الطبقى ، مع بروز سيطرة الكنيسة وهيمنتها ، وما حكايات صكوك الغفران ، واسترقاق العبيد « عبيد الأرض » الا صورا من الاستغلال الطبقى فى العصور الوسطى •

٨ ــ مرحلة اختراع الطباعة :

ويبدو أن كوندرسيه ، يؤرخ لمرحلة « الحضارة » من خلال اختراع الطباعة ، وعلى كل حال فان اختراع الطباعة وحروف الكتابة والهجاء أفسح الطريق أمام الانسانية كلها لتدخل الى عتبات مرحلة حضارية أكثر تميزا ووضوحا وهى مرحلة « الحضارة » كما سماها مورجان (١٥) •

٩ ــ مرحلة الثورة الفرنسية :

ويبدو أن اعجاب كوندرسيه كمواطن فرنسى بالثورة الفرنسية قد جعله يؤرخ لها باعتبارها علامة بارزة على تاريخ الانسانية كلها ، صحيح أن مبادىء الثورة الفرنسية عن الحرية والاخاء والمساواة قد وجدت صداها على المسرح العالمى كله ، ولكنه كان صدى محدودا بالمقارنة بالاسلام مثلا الذى لم يلق اليه كوندرسيه بالاً ، الأمر الذى يجعلنا نؤمن بأن الثورة الفرنسية وان كانت تؤرخ للأمة الفرنسية ذاتها ولبعض الشعوب الأوروبية المجاورة التى عاصرتها وتأثرت بها من باب التجاور ، الا أنها لا تعتبر علامة بارزة على طريق التطور الانسانى كله ولا يصح بالتالى أن تكون أحــد مراحل تطور البشرية •

١٠ ــ مرحلة مستقبل الانسانية :

وهى مرحلة لم تعشها الانسانية بعد ــ فى رأى كوندرسيه ــ وانما هى تصور مستقبلى مثالى لمــا يجب أن تكون عليه الانسانية •

أما عن خصائص هذه المرحلة فانها يجب أن تكون •• ارتقاءا ذاتيا للفرد ، ومساواة تامة بين الجميع فى وطن واحد ، ثم مساواة تامة فى هذا

بين كل الشعوب والأمم والدول باعتبارهم جميعا أعضاء فى المجتمع البشرى الواحـــد الكبير .

والبشرية خلال مرحلة كوندرسيه العاشرة تلك ستكون بحق فى مستوى راق من التطور والتحضر والتعاون وصولا للغايات السامية التى ينشدها المجتمع العـــالمى .

ومن السهل ملاحظة مدى تأثر كوندرسيه واعجابه بمبادىء الثورة الفرنسية التى تمنى أن يعيش المجتمع العالمى كله من خلالها حتى فى حياته المستقبلية .

هذا وقد **أغفـــل** كوندرسيه مرحلة « الصناعة » فلم يشر اليها لا من قريب ولا من بعيد مع العلم بأنها الوريث الطبيعى والملموس للاقطاع ، والغريب فى الأمر أن كوندرسيه قد عاش عصر الثورة الصناعية قبل أن يعيش عصر الثورة الفرنسية ، وكان الأولى به كمؤرخ أو كفيلسوف تاريخى أن يتنبه الى هذه النقطة .

الا أن هناك كلمة **حـــق** يجب أن تقال ، وهى أن فكر كوندرسيه كان هو القبس الذى اهتدى به الكثيرون من بعده ، والنبع الذى ارتوت منه أفكار وآراء كل من تعرض لمسيرة المجتمعات الانسانية عبر الزمان ، ويمكن لأى منصف أن يتحقق من ذلك لو قارن هذا العرض الذى قدمناه لفكر كوندرسيه وللأفكار الأخرى التى عرضناها عن تطور المجتمعات البشرية ضمن كتابنا علم الاجتماع البدوى ، أقول أن أى منصف سوف يعطى لكوندرسيه قدره باعتباره قد شكل مع الفارابى وابن خلدون وغيرهما من مؤرخى العرب والاسلام ، الخلفية المرجعية لكثير من الآراء التى قيلت فى هذا المجـــال * .

(*) للاستزادة انظر :
دكتور صلاح الفوال ـــ المقدمة لعلم الاجتماع العربى والاسلامى ـــ دار الفكر العربى ـــ القاهرة ـــ ١٩٨٢ ص ص ١٠٧ ـــ ٢٠١ .

(٤)

* كارل ماركس « ١٨١٨ ــ ١٨٩٢ » :

استفاد K. Marx من المنهج الجدلى للفيلسوف الألمانى هيجل * ، وراح خلال دراسته للتاريخ الانسانى يبحث عن العــوامل **المـــادية** التى تشكل التاريخ وتحركه ، ولقد انتهى ماركس الى أن التاريخ فى حركته يرتكز على الصراع القائم بين طبقات المجتمع ، والتى تتأثر فى رأيه بما سماه علاقات الانتاج[١٦] .

ولقد استلهم ماركس أفكاره من حركة التاريخ الانسانى الطويلة ، خصوصا الفترات التى اتسمت **بالصراع** سواء كان الصراع صراعا بين الســادة والعبيد أو بين الاقطاعيين وعبيد الأرض ، أو بين العمال وأصحاب الأعمال فى الصناعة .

هذا وقد حدد ماركس دور علم الاجتماع وضرورة أن يقوم بمهمة **اثبـــات** الطابع الانسانى للمجتمع ، كما ركز ماركس شخصيا خلال معظم دراساته على الاهتمام بفلسفة التاريخ كدليل على أهمية الدراسات التاريخية كمدخل لعلم الاجتماع .

كما ارتكز خلال دراساته كلها على **المنهــج** التاريخى المقارن علاوة على المنهج الاحصائى ، تأكيدا لدعوته المستمرة بضرورة الاهتمام بالتاريخ

(*) المفكر والفيلسوف الألمانى G. Hegel ، له هو الاخر فلسفة خاصة فى التطور الانسانى عبر التاريخ ، حيث يرى أن التاريخ فى تصوره يخضع لفكرة كلية ، يسعى الافراد الى تحقيقها من خلال نشاطاتهم اليومية .

هذا وتلعب الأفكار طبقا لتصور هيجل دورا بارزا ومؤثرا فى تحريك حركة التاريخ الانسانى ، كما أن التقدم يحدث فى رأى هيجل بناءا على العملية الجدلية التى تنشأ بين الأفكار الانسانية والتى توجهها جميعا فكرة كلية .

ويوضح هيجل أن التطور يحدث نتيجة للجدل الحادث بين الفكر والفكر المقابل وصولا للفكرة الكلية ، وهذه الفكرة الكلية هى من منطق هيجل الجدلى تعتبر هى الأخرى فكرة لانهائية ، بمعنى أنها فكرة متطورة بفعل الجدل الناشىء عن الحوار الانســـانى .

وفلسفته سعيا وراء اعادة كتابة ذلك التاريخ من وجهة نظر اجتماعية ، لان ذلك الاهتمام من جانب علم الاجتماع يشكل فى حد ذاته **تكاملا** منهجيا يجعل علم الاجتماع قادرا فى النهاية على تحديد ملامحه بصورة أوضح ، الأمر الذى يمكن علم الاجتماع فى النهاية من الوصول الى التعميمات والقوانين العلمية التى يسعى اليها(١٧) .

هذا وقد لقيت آراء ماركس الكثير من النقد المؤيد أو المعارض خصوصا وأنه قد ترتب عليها كأول محاولة منظمة لدراسة حركة التاريخ باستخدام المنهج العلمى ، نقول خصوصا وقد ترتب عليها شيئان هامان :

أولهما — بروز الاتجاه المادى فى تفسير مسيرة التاريخ الاجتماعى والانســـــانى .

وثانيهما — ما ترتب على الماركســية من ذيوع الاشتراكية كمذهب متميز للاصلاح الاجتماعى(١٨) .

(٥)

* ماكس فيــبر « ١٨٦٤ — ١٩٢٠ » :

دراسة Max Weber المشهورة عن أثر الفكر **الدينى** على نشـــأة الفكر الاقتصادى لاسيما الرأسمالى منه ، هذه الدراسة قد غاصت فى أعماق التاريخ خلال مسيرته الطويلة ، لتثبت أن حركة التاريخ ذاته قد تأثرت الى حد كبير **بالعـــــوامل** الدينية .

فقد تعرض ماكس فيبر خلال سعيه لاثبات أثر العقيدة البروتستانتينية على الفكر الاقتصادى لاسيما النظرية الرأسمالية ، تعرض **لليهودية** ولليهود وحدد حجم دورهم فى التأثير على الفكر الاقتصادى لاسيما الرأسمالى منه وانتهى الى أن الدين اليهودى لم يكن له أى أثر على النشاط الاقتصادى ، كما لم يكن اليهود قوة اقتصادية تذكر فى الزمان القديم .

وأرجع فيبر ذلك الى عدم استقرار اليهود وما لحقهم من اضطهاد ، علاوة على عدم اعتبارهم قوة مؤثرة فى البلدان التى يعيشون فيها بما يسمح لهم بالاسهام فى توجيه الاقتصاد وتشكيله ، الأمر الذى دفعهم الى التقوقع والاستغراق فى التأمل الدينى .

كان ذلك فى الزمان القديم ، لكن مع نشأة **الرأسمالية** وبروزها كاتجاه اقتصادى مميز ، شارك اليهود فيها ولعبوا دورا اقتصاديا هاما وعلى الأخص فى مجال تجارة المال والبنوك .

ويصر ماكس فيبر على أن اليهود قد شاركوا فقط فى نمو الرأسمالية ، لكنهم لم يكونوا أبدا مبدعين لهـا[١٩] .

هذا ولم يغص فيبر فى أعماق التاريخ بحثا عن اليهودية وتأثيراتها على الرأسمالية فقط ، وانما نقب أيضا فى التاريخ الصينى القديم وفى ديانتها الشهيرة المسماه بـ « **الكنفوشيسية** » وانتهى فيبر الى أن الـ Confucianism بطقوسها المعقدة كانت ليس فقط معوقة لبروز الرأسمالية ، بل وكانت أيضا ضد ظهورها أصلا .

وعلل فيبر ذلك بأن الكنفوشيسية كانت تصرف أتباعها عن الاهتمام بالأمور الدنيوية ومن بينها الاقتصاد ، علاوة على أنها كانت تضع التجارة فى قاع المهن ، وترتب التجار فى أدنى درجات السلم الاجتماعى .

ولم يكن غوص فيبر فى أعماق التاريخ بحثا عن اليهودية والكنفوشيسية فقط ، وانما تناول أيضا « **الهندوكية** » وتأثيراتها المختلفة على نشأة ونمو الرأسمالية ، وانتهى — ومعه الكثير غيره من الباحثين — الى أن الديانات الهندية القديمة لم تكن تسمح أصلا بقيام أى نشاط لتكوين الثروات واستخدامها الا وفقا للعقيدة الدينية[٢٠] .

وانتهى ماكس فيبر خلال مؤلفه الشهير عن « الأخلاق البروتستانتينية وروح المذهب الرأسمالى » الى أن المذهب **البروتستانتى** وحده هو الذى

مهد لظهور الرأسمالية وعمل على تقويتها ، واستند فيبر فى ذلك على أحد الاتجاهات البروتستانتينية المعروف **بالكالفينزم** Calvinsm والذى يدعو صراحة الى بذل أقصى الجهد فى الحياة الدنيا لأن سعيد الآخرة هو أصلا سعيد فى الدنيا ، ومن هذا المنطلق سعى كل بروتستانتى مخلص الى الجد والاجتهاد فى عمله . بل وكان النبوغ فيه هدفا . ليس لأن النبوغ والتفوق فى العمل يحقق سعادة شخصية دنيوية فقط . بل ويحقق سعادة دينية أخروية أيضا .

اذن .. فان العمل الرأسمالى كان بالنسبة للبروتستانتى ليس مجرد اشباع للاحتياجات الانسانية الضرورية ، وانما كان أيضا مسألة ارضاء ضمير وتمسك بقيم الدين ، بل اعتبر العمل جزءا من الدين ذاته لا يقل شأنا عن الصلاة[٢١] .

(٦)

* شبنجلر « ١٨٥٦ ــ ١٩٣٦ » :

قدم Oswald Spengler خلال كتابه « تدهور الغرب The decline of the west » الذى أصدره عام ١٩١٨ ، والذى ترجم عن الألمانية الى العديد من اللغات العالمية الأخرى . قدم « أوزفالد شبنجلر » صورة **قاتمة** وكئيبة ــ على حد تعبير تيماشيف ــ عن حال المجتمعات الغربية عقب كارثة الحرب العالمية الأولى ، وبصرف النظر عما قيل حول المصدر الذى استقى منه شبنجلر أنساقه الفكرية . أو أن تشخيصه كان ملائما لحالة القنوط التى كان يعانى منه جيل سحقته الحرب كما يقول تيماشيف ، بصرف النظر عن ذلك كله فان أهم ما يميز شبنجلر كعالم اجتماع تاريخى ما يأتى * :

(*) اعتمدنا كتابة هذا الجزء على ما كتبه تيماشيف ضمن المصدر الاتى :
Nicholas S. Timacheff, Sociological Theory, Its Nature and Growth, Random House, New York, 1967.

١ — يرى شبنجلر أن **التقسيم** التقليدى للتاريخ الى قديم ووسيط وحديث ،، يعتبر تقسيما **مضللا** الى حد بعيد ، لأن ذلك التقسيم ليست له أية قيمة تفسيرية أو ليست له دلالة ذات بال ، باعتبار أن تاريخ الانسانية **ككل** ليس له أى معنى يمكن الكشف عنه ، بينما تكمن الدلالة الحقيقية فى تواريخ حياة كل **ثقافة** انسانية على حدة .

٢ — يرى شبنجلر فى اصرار أن الثقافات ذات طابع **منفرد** ، بمعنى أن لكل ثقافة أسلوبها الخاص بها أو روحها المميزة لها ، كما اعتبر أن **العلاقات** التبادلية بين مختلف الثقافات تعتبر شيئا عارضا علاوة على عدم الجدوى النسبية لتلك العلاقات التبادلية .

٣ — وصف شبنجلر الثقافة بأنها « **كائن حى** » ، لذلك فالثقافة عنده تنمو من خلال مراحل الطفولة والشباب والنضج ، حتى تشيخ فى مرحلة الشيخوخة ، كما عبر شبنجلر أحيانا عن مراحل نمو الثقافة بأوصاف مستمدة من المناخ عندما قال أنها تمر بدورة تشبه الفصول الأربعة .. بدءا من الربيع فالصيف فالخريف ثم الشتاء .

٤ — يرى شبنجلر أن **نمو** الثقافات وفقا للمراحل التى حددها ليست عملية علية بقدر ما هى مسألة مصير أو قدر حياة ، حيث توجد لكل ثقافة بداية ونهاية ، وحتى قبل البداية توجد مرحلة تحضيرية هامة سماها « المرحلة قبل الثقافية » التى يرى أن كثيرا من الشعوب لازالت تحيا فيها حتى اليوم .

٥ — حدد شبنجلر **عمر** الثقافة — خلال مراحلها الأربع — بألف عام ، وناقش ثمانية أنماط اعتبرها الأنماط الأساسية للثقافة وهى المصرية ، وبلاد ما بين النهرين « العراق » ، والهندية ، والصينية ، والأبوللونية ، والعربية ، والمایاوية ، وأخيرا الثقافات الغربية * .

(*) استخدم شبنجلر بعض المرادفات ، فاستعمل بدلا من الثقافة العربية .. « الثقافة المجوسية » ، وبدلا من الأبوللونية .. « الكلاسيكية » ، =

هذا ومن رأى تيماشيف أن شبنجلر قد رتب تلك الثقافات بطريقة مصطنعة أو شديدة الاصطناع على حد تعبيره . ويضرب لذلك مثلا وصف شبنجلر للثقافة العربية أو المجوسية * بأنها بدأت فى فجر المسيحية ثم استمرت فى العصر البيزنطى ثم انتهت خلال عصر الخلافة العربية ** .

= وبدلا من الثقافة الغربية .. « الفاوستية » . ولا ندرى بالتحديد مدى صحة مرادفات شبنجلر عن الثقافة الغربية أو الأبوللونية . لكن المؤكد ان خلطه ما بين نمطى الثقافة المجوسية والعربية حتى فى أيام الجاهلية هو خلط لا مبرر له ، صحيح أنه كانت هناك تأثيرات متبادلة بين كل من الثقافتين الفارسية والعربية الجاهلية القديمة ، لكنها لم تصل ابدا الى حد التطابق الذى يبرر استخدام المجوسية كمرادف للعربية ، ثم ان المجوسية كدين لم تكن يوما سائدة فى كافة بلاد العرب القديمة وان تأثرت بها فقط بعض الأقطار العربية المجاورة لفارس ، وبعد ظهور الاسلام قضى تماما على مختلف اشكال ذلك التأثير ، حتى قضى تماما على الثقافة المجوسية بعد دخول الاسلام لبلاد فارس ذاتها بعد معركة القادسية الشهيرة . ولم يعد لها أى تأثير — ظاهر على الأقل — لا فى فارس ولا فى بعض الأقطار العربية المجاورة . وبعد الاسلام ظهرت ثقافة جديدة اسلامية عربية .

وعلى كل نحن آثرنا هنا أن نوضح ليس فقط الخطأ الكبير الذى وقع فيه شبنجلر عندما اختلط الأمر لديه بين ما هو مجوسى وما هو عربى . وانما لنوضح الخطأ الأكبر الذى وقع فيه بعض ناقلى تراث شبنجلر وأمثاله الى العربية دون أن يردوا على أخطائهم الفادحة حول العروبة والاسلام ، خصوصا وان تلك الأخطاء تتخذ فيما بعد أساسا لكتابات أخرى حول موضوعات مشابهة أو قريبة ، للاستزادة حول الحضارة الفارسية ومدى علاقاتها بالفكر العربى الجاهلى انظـــر :

دكتور صلاح الفوال — سوسيولوجيا الحضارات القديمة — مرجع سابق ص ص ٢٤٥ — ٢٤٧ .

(*) الثقافة العربية أو المجوسية . هكذا فى النص المأخوذ عن تيماشيف ، انظـــر :

تيماشيف — نظرية علم الاجتماع — ترجمة الدكتور محمود عوده وزملاؤه — الطبعة الثانية — ١٩٧٢ ص ٤١٣ .

(**) لاحظ الشبه الكبير فى دورة حياة الثقافة التى ذكرها شبنجلر ، ودورة حياة الدولة التى ذكرها ابن خلدون قبل ذلك بأربعة قرون أو يزيد .

للاســـتزادة انظـــر :

دكتور صلاح الفوال — المقدمة لعلم الاجتماع العربى والاسلامى — مرجع سابق ص ص ١٧١ — ١٨٤ .

وقبل أن نختتم الحديث عن رواد علم الاجتماع التاريخى ، نحب أن نوضح أن دراسة حـركة التاريخ الانسانى وتطور الظواهر الاجتماعية ، ظلت هى السمة الغالبة على الفكر السوسيولوجى حتى القرن التاسع عشر ، عندما بدأ الاهتمام بدراسة **أسـباب** التغير الاجتماعى ، مع عـدم اهمال دراسة التاريخ الانسانى لكن ليس باعتباره ظواهر أو أحداث فردية ، ولكن من منطلق أنه ظواهر جماعية متكررة فى أكثر من زمان وفى أكثر من مكان ، علاوة على أن حركة التاريخ البشرى تحددها مجموعة من العوامل ولا ترجع أبدا لسبب أو لعامل واحد ، اقتصاديا كان أو غير ذلك .

* * *

المصـــادر والتعليقـــات

١ — انظر أى من مؤلفاتنا الآتية :

(أ) علم الاجتماع البدوى — دار النهضة العربية — القاهرة — ١٩٧٤ .
(ب) معالم الفكر السوسيولوجى المعاصر — دار الفكر العربى — القاهرة — ١٩٨٢ .
(جـ) المقدمة لعلم الاجتماع العربى والاسلامى — دار الفكر العربى — القاهرة — ١٩٨٢ .

٢ — للاستزادة انظر :

دكتور صلاح الفوال — البداوة العربية والتنمية — مكتبة القاهرة الحديثة — القاهرة — ١٩٦٧ ص ص ١٧ — ١٢٥ .

٣ — المصدر السابق ص ص ٩٨ — ٩٩ .

٤ — حول العصبية وانماطها انظر :
دكتور صلاح الفوال — علم الاجتماع البدوى — مرجع سابق ص ص ٢١٦ — ٢٢٩ .

٥ — انظر :

عبد الرحمن ابن خلدون المغربى — مقدمة ابن خلدون لكتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر فى أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر — طبعة دار التحرير للطبع والنشر — القاهرة — ١٩٦٦ ، فى مواضع كثيرة منها .

٦ — المرجع السابق ص ٣١٩ .

٧ — دكتور صلاح الفوال — البداوة العربية والتنمية — مرجع سابق ص ١١٧ .

٨ — للتعرف على الرأى التفصيلى لابن خلدون فى كل من الفلاحة والصناعة والتجارة ، وفى غيرها من بقية المهن انظر :
المرجع السابق ص ص ١١٩ — ١٢٢ .

٩ — انظر :

دكتور صلاح الفوال — معالم الفكر السوسيولوجى المعاصر — مرجع سابق ص ٤٨ .

١٠ — انظـــر :

دكتور صلاح الفوال — علم الاجتماع البدوى — مرجع سابق ص ص ١١٧ — ١١٨ ، ص ص ١٢٨ — ١٢٩ ، لتتعرف على رأى كل من النظرية التطورية والنظرية الأنثربولوجية فى تطور المجتمعات .

١١ — المرجـــع الســـابق ص ١١٨ ، وانظر أيضا :

دكتور صلاح الفوال — تنمية المجتمعات الصحراوية — أسس نظرية — مكتبة القاهرة الحديثة — القاهرة — ١٩٦٨ ص ص ٥٦ — ٦٧ ، لتأخذ فكرة أوضح عن التطور البشرى .
وانظر كذلك — كتابنا — علم الاجتماع البدوى السابق الاشارة اليه ص ص ١٣٩ — ١٩٥٢ ، لتأخذ فكرة متكاملة عن تطور المجتمعات البشرية من خلال وجهة نظر تكاملية .

١٢ — للاستزادة حول الحضارة اليونانية انظـــر :
دكتور صلاح الفوال — سوسيولوجيا الحضارات القديمة — مرجـــع سابق — الفصل الخاص بالحضارة الاغريقية ص ص ٨١ — ٩٩ .

١٣ — انظـــر : المرجع السابق — الفصل الخاص بالحضارة الرومانية ص ص ١٠١ — ١٣٧ .

١٤ — المرجع السابق — الفصل الخاص بالفكر الدينى المسيحى ص ص ٢٧١ — ٣٠٢ ، وانظـــر أيضا :

دكتور صلاح الفوال — المقدمة لعلم الاجتماع العربى والاسلامى — مرجع سابق — الجزء الخاص برواد الفـــكر السوسيولوجى العربى والاسلامى ص ص ١٧١ — ١٨٤ .

١٥ — انظر : كتابنا — علم الاجتماع البدوى السابق الاشارة اليه ص ١١٩ ، وانظر كذلك للاستزادة حول : ماكس فيبر واسهاماته :

دكتور صلاح الفوال — معالم الفكر السوسيولوجى المعاصر — مرجع سابق ص ص ١١١ — ١٢٠ .

١٦ — للاستزادة حول ماركس وآرائه ونظرياته انظر :

(أ) دكتور صلاح الفوال — معالم الفكر السوسيولوجى المعاصر — مرجع سابق ص ص ٥١ — ٦٠ .
(ب) تيماشيف — مرجع سابق .

(جـ) دكتور صلاح الفوال — علم الاجتماع البدوى — مرجع سابق ص ص ١٢٦ — ١٢٧ .

(د) Percy. S. Cohen, Modern Social Theory, London, Heine Mann Educatial Books, Ltd. 1968.

وانظر أيضا الترجمة العربية لهذا الكتاب — الدكتور عادل مختار الهوارى — مكتبة نهضة الشرق — القاهرة ١٩٨٠ .

(هـ) K. Marx & F. Engels; Selected Works in Two Volunens, Foreign Languages Fublishing House, Moscow, 1951.

١٧ — للاستزادة حول هذه النظرية انظر :

دكتور صلاح الفوال — معالم الفكر السوسيولوجى المعاصر — مرجع سابق ص ص ٥٣ — ٥٤ .

١٨ — انظر الانتقادات التى وجهت لماركس وآرائه ضمن كتابنا — معالم الفكر السوسيولوجى المعاصر — المرجع السابق ص ص ٥٧ — ٦٠ .

١٩ — يذهب كثير من المؤرخين الى عكس ما انتهى اليه فيبر . خاصة «Sambart» الذى يرى خلال كتابه « اليهود والرأسمالية الحديثة » ؛ أن اليهود هم المؤسسون الحقيقيون للرأسمالية الحديثة .
ومنهم أيضا من يؤيد فيبر بشدة ويهاجم « زمبارت » على ادعائه بفضل اليهود على نشأة الرأسمالية ؛ حيث يقول « ستانسلاف اندراسكى » خلال كتابه الشهير « عناصر علم الاجتماع المقارن » أن الرأسمالية لم تنشأ ولم تزدهر فى بريطانيا الا فى الفترة التى طرد فيها اليهود منها وقبل أن يعودوا اليها مرة أخرى وحتى بعد أن هاجروا منها بأعداد كبيرة الى دول أوروبا الشرقية ، لم يكن لتلك الهجرة شبه الجماعية اية تأثيرات ضارة تذكر على الاقتصاد الانجليزى ، للاستزادة حول هذا الموضوع انظر :

S. Endrisky, Elements of Comparatine Sociology, London, 1964.

٢٠ — للاستزادة حول الكنفوشيسية انظر :

دكتور صلاح الفوال — سوسيولوجيا الحضارات القديمة — مرجع سابق — الفصل الخاص بالحضارة الصينية القديمة ص ص ١٨٥ — ١٩٨ .

٢١ — للاستزادة انظر المصدر السابق الجزء الخاص بالحضارة الهندية القديمة ص ص ١٦٣ — ١٨٣ .

المبحث الثـــالث

دراســـة الثقـــافة من منظـــور تاريخى

* توينبى .
* سوروكين .
* علم الاجتماع التاريخى وعلم الاجتماع .
* الخلاصـــة .

* * *

* دراسة الثقافة من منظور تاريخى :

تبرز علاقة من نوع جديد وخاص بين علمى التاريخ والاجتماع ، من خلال دراسة موضوع « الثقافة » خاصة من خلال دراسات كل من توينبى Toynbee وسوروكين Sorokin ، وذلك على النحو الموجز الآتى :

(أ) توينـــــبى :

اهتم توينبى خلال كتابه « دراسة التاريخ » **بتتبـــع** العوامل والمبادىء التى تحكم نمو وأفول الحضارات ، واعتمد توينبى فى ذلك على دراسة احدى وعشرين حضارة ، يفترض أنها قد اجتازت تاريخ حياتها بشكل طبيعى وكامل ، ويعتقد توينبى أن الحضارة **تظهـــر** فى زمن معين وفى مكان معين ، ثم فى ظل ظروف خاصة ، ويعود هذا النمو فى النهاية الى حالة اخفاق ثم تليها حالة أفول [1] * .

(*) للاستزادة حول توينبى واسهاماته انظر تيماشيف ـــ مرجع سابق ص ص ٤١٤ ـــ ٤١٩ .

(ب) بيتريم سوروكين :

اذا كان توينبى قد اهتم بتتبع العوامل والمبادىء التى حكمت نمو وأفول الحضارات ، فان سوروكين قد اهتم بعمليات **التغير** الثقافى من خلال نهجه لنفس الاتجاه التطورى التاريخى عند دراسته لأصل الثقافات ونموهـا .

وسوروكين يعتقد أن تطور الثقافة يأخذ شكل **التحول** أو الذبذبة بين الثقافة الفكرية والحسية . كما يتميز ذلك التحول فى رأى سوروكين بانتقال دورى من حال الى آخر فى أحد الاتجاهين خلال نمط الثقافة المختلط ، وفى الاتجاه الآخر خلال النمط الفكرى . ويبدو أن هذا النمط يميز تاريخ الثقافة الغربية بأكمله[٢] .

هذا ويؤكد سوروكين أن التحولات التى تطرأ على الثقافة ترجع الى طبيعتها الداخلية ، حيث يعتبر أن التغير هو قـــدر كل نسق اجتماعى ثقـــافى[٣] .

هذا ومن رأى سوروكين كذلك أن الثقافة قد تمتص بعض أجزائها أو حتى ترفض لكنها أبدا لا تموت . لأن البقاء يكتب لها حتى من داخل عوامل فنائها وهو ما يعرف بالامتصاص الثقافى والذى ينشأ نتيجة لامتصاص ثقافة ما لبعض أجزاء من ثقافة أخرى[٤] .

وهذا الامتصص الثقافى حتى وان بدا فى ظاهره فناءا للثقـــافة الممتصة ، الا أنه فى الواقع بداية حياة جديدة لها[٥] * .

*

علم الاجتماع التاريخى وعلم الاجتماع :

شهدت ساحة علم الاجتماع دعوة ملحة من طرف العديد من علمائه

(*) للاستزادة حول اسهامات سوروكين . خاصة فيما يتعلق بموضوع الديناميات الثقافية لديه انظر : المصدر السابق ص ص ٤١٩ — ٤٢١ .

وباحثيه ، تدعو لاحياء الاتجاه التاريخى ، وتحذر من تخلى علم الاجتماع عن تبنى الاتجاه التاريخى والمقارن فى البحث ، ويرى أصحاب ذلك الاتجاه أن علم الاجتماع بهذا التخلى ، انما يفقد فى الواقع **أصوله** التاريخية التى ساعدت فى تشكيله ونموه ، وضربوا لذلك العديد من الأمثلة نتيجة وقوع عدة أخطاء فادحة للبحوث السوسيولوجية التى تجاهلت الكثير من الشواهد التاريخية(٦) .

وأكثر من هذا ، فان عالما مبرزا كرايت ملز C. Wright Mills قد دعا صراحة خلال مؤلفه « التخيل السوسيولوجى » الذى صدر عام ١٩٥٩ ، الى ضرورة العودة الى الاتجاه **التاريخى** لأنه ليس فى مقدور علم الاجتماع أن يدرس اتجاهات الأفراد مثلا أو أى ظاهرة اجتماعية أخرى فى معزل عن سياقها التاريخى .

ولم يكتف ملز بهذا بل نادى بأن علم الاجتماع الحقيقى هو علم الاجتماع التاريخى ، وطبعا لم ينته ملز الى هذا الرأى بدون أسباب أو مبررات توضح تلك العلاقة الوثيقة ما بين التاريخ وبين الاجتماع .

* هذا ويمكن تلخيص وجهة نظر ملز فى هذا الشأن على النحو الآتى :

(أ) أنه يجب أن تتوافر لدى الباحث السوسيولوجى معرفة **منظمة** بتاريخ المجتمعات وكذلك بنوعيات البناء الاجتماعى اذا ما أراد أن تأتى تساؤلاته المطروحة فى بحثه السوسيولوجى أكثر دقة وأكثر دلالة ، هذا علاوة على أن الباحث السوسيولوجى يجب أن يحدد بوضوح ما الذى عليه أن **يفسره** فى ضوء نظرة أعم لعدد من النماذج البشرية والنظم الاجتماعية ، وعلم التاريخ والدراسة المقارنة هى التى ستمكن الباحث من صياغة فروضه وتخيل حلولها بطريقة أكثر صحة وواقعية (٧) .

(ب) أنه من العسير أن نفهم مجتمعا — حتى وان كان محدودا — فى

وضعه الاستاتيكى النسبى ، ما لم نستعن بالمـادة التاريخية المتوافرة لدينا عن ذلك المجتمع ، لأن الصورة النهائية لأى مجتمع هى فى الواقع صورة تاريخية ، وبناء عليه فانه ليس فى مقدورنا أن نفهم أى مجتمع بصورة حقيقية الا فى سياق الحقبة التاريخية التى يحيا فيها[٨] .

(ج) أن أى دراسة سوسيولوجية تأتى خالية من **المضـمون** التاريخى ما هى فى الواقع الا دراسة محدودة النطاق ، لأن المادة التاريخية الكثيرة والمنوعة هى التى تتيح لنا فى الواقع فرصة لدراسة مختلف **أنمـاط** التفاعلات بين البناءات الاجتماعية المختلفة . علاوة على مدنا بأسس فهم واكتشاف الأسباب العامة للظواهر الاجتماعية[٩] .

(د) ان التاريخ يمدنا بالقدرة على اجراء الدراسات **المقـارنة** خصوصا عند دراستنا للنظم والبناءات الاجتماعية السائدة فى العديد من المجتمعات ، ومن الطبيعى أن فهمنا لتلك البناءات والنظم الاجتماعية بحالتها الراهنة يظل قاصرا اذا لم تتضح أمامنا صورها المختلفة عبر الحقبـات التاريخية الطويلة والسابقة[١٠] .

(هـ) ومعنى كل ما أورده « ملز » أننا يجب لكى نفهم الوقائع الاجتماعية ونفسرها ونجرى عليها المقارنات اللازمة ، يجب أن نعرف مختلف **المراحل** التاريخية والأسباب التى انتهت اليها تلك الوقائع .

ويضرب ملز مثالا على ذلك بأننا مطالبون عند دراستنا مثلا لاختلاف معدلات واتجاهات النمو والتطور الاجتماعى . مطالبون — من خلال علم التاريخ — بالاجابة على هذا السؤال . لمـاذا استطاعت المستعمرات التى أسسها الغربيون فى جنوب أمريكا واستراليا فى القرن السادس عشر والسابع عشر ، أن تصبح مجتمعات صناعية مزدهرة ، بينما ظلت تلك المجتمعات التى توجد بالهند وأمريكا اللاتينية وأفريقيا متخلفة حتى القرن العشرين[١١] * .

(*) ملز فى حماسه لعلم الاجتماع التاريخى ، اثار هذا السؤال عن اسباب تخلف دول كثيرة فى امريكا اللاتينية وافريقيا والهند ، على الرغم من ان دولا =

هذا ولم يكن ملز وحده هو داعية **الارتبـــاط** بين علم الاجتماع والتاريخ من خلال احياء علم الاجتماع التاريخى ، حيث شاركه فى ذلك « ليبست Lipesr » خلال مؤلفه المسمى « مســائل علم الاجتمــاع السياسى » ، وخلاصة دعوى « ليبست » هو تأكيده على أهمية **المنظــور** السوسيولوجى المرتكز على التحليل التاريخى خاصة المقارن منه[١٢] .

*

منهج البحث التاريخى
كعلامة التقاء أخرى بين الاجتماع والتاريخ

تبرز استخدامات المنهج التاريخى بشكل واضح لدى علماء الاجتماع خلال دراستهم للثقافة ، لاسيما ما تعلق **بنشـــأة** الثقافة وتاريخها ، علاوة على كيفية انتشار الثقافات وصور احتكاكاتها ، وما ينشأ عن ذلك **الاحتكاك من ثقافات** مشابهة أو مغايرة أو ذات سمات مشتركة .

وليس علم الاجتماع وحده هو الذى يرتكز على منهج البحث التاريخى فى دراسته للثقافة ، حيث تفعل الأنثربولوجيا فى نفس الشىء ، بل وتستخلص بعض الاتجاهات الأنثربولوجية من منطق البحث التاريخى ، لأن الثقافة كخاصية نشأت **عـــبر** التاريخ مرة واحــدة ومن منبع واحــد ، ثم ما لبثت أن انتشرت بفعل الاحتكاك أو **الاتصـــال** الثقافى أو الحضارى بين مختلف الأمم ، والثقافة فى انتشارها عبر العالم كله بفعل عوامل الاتصال المختلفة تطورت فى بعض الخصائص وتوحدت أو تشابهت فى البعض الآخر ، لكن تبقى دوما لطبيعتها المتميزة أصول واحدة عبر تاريخ الانسانية الطـــــويل [١٣] .

= أخرى وصفها بأنها كانت مستعمرات سابقة للدول الغربية صارت أكثر تقدما وازدهارا ، ولقد نسى ملز فى حماسه هذا أن الاستعمار الغربى ذاته لتلك المجتمعات كان أحد الأسباب التاريخية والمباشرة لتعطيل مسيرتها نحو التقدم والرخاء ، ولا أدرى كيف فاتته هذه الحقيقة على الرغم من أنها بديهية تاريخية واضحة لأى باحث مبتدىء فى التاريخ ، وليس لعالم يريد أن يربط علم الاجتماع بالتاريخ . . !!

*** الخـــــــلاصة :**

أن هناك الكثير من الوشائج والصلات بين كل من علمى الاجتماع والتاريخ ، ويقينى أن حاجة الاجتماع الى علم التاريخ هى الأكثر وبالدرجة التى نقرر معها وبغير تحيز أن الاجتماع هو المستفيد بدرجة أكبر ، فالتاريخ مصدر رحب ليس فقط للكثير من الأبحاث والدراسات والمعـــلومات السوسيولوجية ، وانما يشكل التاريخ ركيزة أساسية لكثير من النظريات السوسيولوجية * .

ولقد كانت هذه قناعة الكثيرين من علماء الاجتماع وباحثيه ، حيث دعا باحث سوسيولوجى مرموق هو « الفرد فيبر » الى ضرورة أن يعكف عالم الاجتماع على دراسة التاريخ حتى يمكنه أن يحصـــل على مادته البحثية .

كما أن الصلة التى تربط بين كل من الاجتماع والتاريخ ، تبدو أوضح ما تكون خلال العلاقة التساندية القائمة فعلا بينهما ، وللدرجة التى دفعت عددا غير قليل من علماء الاجتماع والتاريخ على حد سواء الى القول بأن علماء الاجتماع هم علماء التاريخ المعاصر ، وأن المؤرخين هم علمـــاء اجتماع العصور الخالية .

ويرى هؤلاء العلماء أنه يستوى النظر الى الدراسة التاريخية باعتبار أنها تنصب على الأحداث الفريدة فقط فى تطور الكائن الاجتماعى ، أو أنها دراسة شاملة تربط بين الماضى والحاضر ، وتحاول أن تكشف عن العوامل والأسباب .

كما يرى أولئك العلماء أيضا أن كلا من النظريتين له قيمته فى البحث العلمى السوسيولوجى [١٤] ** .

* * *

(*) هناك فرق بين علم التاريخ كعلم وبين التاريخ نفسه كتاريخ ، ونحن نتحدث هنا عن استفادة علم الاجتماع من التاريخ .

(**) لم تكن العلاقة بين علم الاجتماع وعلم التاريخ محل اتفاق علمـــاء الاجتماع والأنثربولوجيا بالذات على طول الخط ، فقد برز اتجاه آخر مضاد اعتبره كثير من الباحثين تحـــديا كبيرا للاتجـــاه التاريخى ، حيث عارض =

. . . . . .

« مالينوفسكى » بشدة منهج التأويل التاريخى ، حيث يجب الاقتصار على فهم الحياة الاجتماعية ككل فى مجتمع محدد بالذات وفى فترة زمنية تطول أو تقصر على حسب طبيعة الدراسة ذاتها ، ويقول أن ذلك هو النظرة العلمية الصحيحة ، اذ ليس هناك ما يدعو فى دراسة الثقافة مثلا الى محاولة التعرف على نشأتها وتطورها ، لأن الأهم فى رأيه هو تحليل العلاقات المتبادلة بين الظواهر الثقافية التى تؤلف كلا متكاملا معقدا فى مجتمع من المجتمعات ، ويسترسل « مالينوفسكى » قائلا .. أنه حتى ان وجد الباحث الأنثربولوجى ضرورة لدراسة تاريخ الثقافة عند تحليل عمليات التغير الثقافى والاجتماعى ، فان ذلك لا يعنى الاعتماد على منهج التأويل التاريخى ، بقدر ما يشير الى مقارنة يعقدها الباحث بين ثقافتين مختلفتين تسودان مجتمعين فى فترتين زمنيتين مختلفتين .

وهناك نغمة مشابهة فى علم الاجتماع كتلك الموجودة فى الأنثربولوجيا ضد تيار الاتجاه التاريخى ، وتتمثل فى معظم الدراسات الامبيريقية التى يقوم بها علماء الاجتماع والأمريكيون منهم بصفة خاصة ، حيث نجد اهتماما ملحوظا بدراسات تدخل ضمن ما يعرف باسم التحليل السوسيولوجى للوحدات الصغرى Micro - Sociology ، وهى دراسات تهتم فى الغالب ببحث بناء وتكوين وتغير الجماعات الصغيرة فى مختلف التنظيمات والمجتمعات المحلية الصغيرة .

ومن مميزات هذه الدراسات الامبيريقية أنها تستعين فى تحقيق أغراضها بأساليب منهجية بالغة الدقة والاحكام ، كما تميل فى الغالب الى التعبير عن نتائجها فى صورة صيغ رياضية وكمية ، ويعتبر أصحاب هذا الاتجاه أن ذلك التعبير الرياضى والكمى هو الذى يضفى طابع العلمية على دراسات علم الاجتماع ، خصوصا وأن دراسة وتحليل الوحدات الاجتماعية الكبرى Macro Sociology هو الذى يدعو الى النظر اليها من منظور تاريخى مقارن حتى يمكن بحث اتجاهات التغير الاجتماعى والثقافى على مستوى المجتمعات الشاملة أو حتى على مستوى الحضارات الكبرى .

وقد يذهب البعض الى أن الاهتمام بدراسة الوحدات الصغرى من شأنه أن يجعل الدراسات الاجتماعية اكثر دقة ، كما لا يعدم الافادة من نظريات سوسيولوجية كبرى صاغها رواد أمثال ماكس فيبر ، وباريتو وغيرهم : للاستزادة انظر :

(أ) دكتور صلاح الفوال — منهجية العلوم الاجتماعية — عالم الكتب — القاهرة — ١٩٨٢ .

(ب) دكتور محمد على محمد — « مناهج البحث الاجتماعى وأدواته » ضمن كتاب — دراسة علم الاجتماع — دار المعارف — القاهرة — ١٩٧٥ ص ص ٧٦ — ٧٧ .

(جـ) دكتور صلاح الفوال — معالم الفكر السوسيولوجى المعاصر — دار الفكر العربى —القاهرة — ١٩٨٢ .

(د) دكتور صلاح الفوال — علم الاجتماع .. المفهوم والموضوع والمنهج — دار الفكر العربى — القاهرة — ١٩٨٢ .

المصـــادر والتعليقـــات

١ — يـــرى توينـــبى Toynbee ان الحضارة كمفهوم تشير الى عدد معين من الشعوب التى تتميز بطائفة كبيرة من السمات المشتركة ، انظر :
دكتور محمد على محمد « مناهج البحث الاجتماعى وأدواته » ضمن كتاب — دراسات علم الاجتماع — مرجع سابق ص ٧٥ .

٢ — المرجـــع الســـابق ص ٧٥ .

٣ — Sorokin, P., Society, Culture, and Personabty, New York, Harperd, 1947.

٤ — Sorokin, P., Socioal and Cultural Dynamics; 4 vols New York, American Book, 1937.

٥ — للاستزادة حول سوروكين انظـــر :
دكتور صلاح الفوال — معالم الفكر السوسيولوجى — مرجع سابق ص ص ١٥٣ — ١٥٩ .

٦ — انظر المثال الذى ضربه « أوسكار هاندلين » و « استيفان ثرنستورم » عن الدراسة التى أجراها « لويد وارنر » عن « الحضارة الاجتماعية فى مجتمع محلى حديث » ضمن سلسلة بحوث « اليانكى سيتى » فى :
Lipset, S. M. Revolution and Counterrevolution, Change and Resistance in Social Structures, London, Heinemann, 1969, pp. 3-4, pp. 8-9.

٧ — C. Wright Mills; The Sociolgical Imagination, 1959. Economics
مع ملاحظة أن الترجمة تمت عن هذا المصدر بتصرف كبير لكننا حافظنا على نفس آراء وأفكار « ملز » كمؤلف .

٨ — المصـــدر الســـابق .

٩ — نفس المصـــدر الســـابق .

١٠ — المصـــدر الســـابق .

١١ — المصدر السابق وانظر أيضا :
دكتور محمد على محمد — مصدر سابق ص ٧٩ .

١٢ — انظر فى ذلك :
(أ) دكتور محمد على محمد — مرجع سابق ص ٨٠ .
(ب) دكتور محمـــود قاسم — المنطق الحـــديث ومناهج البحث — مكتبة الأنجلو المصرية — القاهرة — ص ص ٣٦٨ — ٣٧٠ .

١٣ — ابن خلدون هو أول مؤسس لمنهج البحث التاريخى ، حيث اتبع فى دراساته وأبحاثه منهجا مغايرا لمنهج من سبقه من المؤرخين والعلماء ، وقد انقسم منهج ابن خلدون الى قسمين أساسيين ، أولهما .. نقدى سلبى ، عرض خلاله ابن خلدون أخطاء من سبقه وطلب بضرورة تجريد عقل الباحث أو المؤرخ من تلك الأخطاء التى نوجزها فيما يلى :
« الاقتصار فى الأخبار على مجرد النقل ، التشيع للآراء والمذاهب ، الثقة بالناقلين وتصديق الباحث لمـــا يرويه ثقاة المؤرخين ، الذهول عن

المقاصد ، تقرب العلماء والمؤرخين من أصحاب المراتب العالية والسلطان بالثناء والمديح ، وجهل المؤرخين بطبائع الأحوال فى العمران » .

كان ذلك عن القسم الأول وهو القسم النقدى السلبى ، أما القسم الثانى من منهج البحث التاريخى الخلدونى ، فهو جانب وصفى تحليلى أو ايجابى .. ويركز فيه ابن خلدون على اتباع الأسس المنهجية التى ترشد الباحث للوصول الى القوانين التى تحكم كلا من الظواهر التاريخية والاجتماعية ، ويمكن ايجاز افكار ابن خلدون فى هذا الشأن كالآتى :

« يجب الاعتماد على الملاحظة المباشرة وما تؤدى اليه التجربة ، يجب تفسير الظواهر وتحليلها واستخدام منطق « التعليل » ، يجب الاعتماد على منطق « المقارنة » أو منطق البحث المقارن ، يجب قياس الأخبار على أصول العادة وطبائع العمران ، واخيرا يجب دراسة تطور الظواهر والنظم العمرانية » .

هذا ومن أهم سمات منهج البحث التاريخى الخلدونى أنه يعتمد على مرحلتين هامتين فى تعامله مع الظواهر المبحوثة ، نوجزهما فى الآتـــى :

(أ) المرحلة الأولى — تتمثل فى ملاحظات حسية وتاريخية لظواهر المجتمع ، أو بعبارة أخرى — تتمثل فى جمع المواد الأولية لموضوع بحثه من المشاهدات ومن بطون كتب التاريخ .

(ب) المرحلة الثانية — وتتمثل فى عمليات عقلية يجريها على تلك المواد الأولية ويصل عن طريقها الى الهدف الذى سعى اليه وهو الكشف عما يحكم الظواهر الاجتماعية والتاريخية من قوانين .

وعلى كل حال فان التاريخ يتميز بمنهج واضح للبحث كما أسلفنا ، وهو منهج يستفيد بالماضى فى فهم وتفسير الحاضر ، ولا يمكن للباحث التاريخى أن يفهم ذلك الماضى الا اذا مـــر بمرحلتين أساسيتين :

أولهما — مرحلة التحليل ، وتبدأ هذه المرحلة بجمع الوثائق ونقدها والتأكد من شخصية أصحابها ، بهدف تحديد الحقائق التاريخية الجزئية .

وثانيهما — مرحلة التركيب ، وتبدأ هذه المرحلة عندما ينتهى الباحث من المرحلة الأولى ، حيث يحاول الباحث تصنيف ما تجمع لديه من حقائق ثم التأليف بينها تأليفا عقليا منطقيا .

للاستزادة حول منهج البحث التاريخى والمنهج الخلدونى انظر :
دكتور صلاح الفوال — البداوة العربية والتنمية — مرجع سابق — ص ص ٢٠ — ٢٨ .

١٤ — انظر بعض الأمثلة التوضيحية ، كدراسة تطور الصناعة ، أو ظاهرة القيادة فى المجتمعات الريفية ، أو الدراسات التى تستهدف تحديد خصائص وسمات الشخصية العـــامة لأى مجتمع ، أو دراســـة الفولكلور والعادات الشعبية ، وهى كلها أمثلة توضح الدور الذى تلعبه الشـــواهد التاريخية بالنسبة للبحث السوسيولوجى ، وذلك ضمن :
الدكتور محمد على محمد — دراسة علم الاجتماع — مصدر سابق — ص ٨١ .